السوسيولوجيا من أزمة نظرية إلى البحث عن البديل -بين التوافقية وما بعد الحداثة والتأصيل-

د. طرابلسي عبد الحق، جامعة محمد الشريف مساعديه سوق أهراس- الجزائر

Sociology from theory crisis issue to a search for replacement compatiblism and etymology -between consociationalism

Dr.Trabelsi abdelhak, university Mohamed chérif mesaadia souk ahras , Algeria

ملخص: لقد خاض علم الاجتماع منذ نشأته معارك فكرية وعلمية ضارية للدفاع عن مشروعيته، خاصة في المجال النظري غير أن علم الاجتماع عاش فترات متعاقبة من الاعتراك الابستمولوجي والمنهجي، وهذا ما سرع في نشأة أزمة حقيقية تهدد علمية العلم أصلا، فجذور هذه الأزمة قد تمتد إلى فلسفة التنوير وتكلساتها النظرية، التي تأثر بها علم الاجتماع وساهم بدرجة كبيرة في حالة الانشطار النظري الذي ينخر بطن العلم ومنهجه، وقد طرحت العديد من البدائل التجاوزية لهذه الأزمة وسنركز في هذه المعالجة البحثية على المقاربة النظرية التوافقية ونظرية ما بعد الحداثة ومحاولات أصحاب الاتجاه الإسلامي في التأصيل.

الكلمات المفتاحية: النظرية السوسيولوجية، الأزمة العلمية، مابعد الحداثة، التوافقية، التأصيل الإسلامي.

Abstract: Upon its originating, sociology had gone through ferocious battles of thought and science for the defence of its legitimacy, especially that of the theoretical field. It however witnessed successive periods of methodological and epistemological conflicts, its pioneers which accelerated the emergence of an actual crisis/issue threatening the scientificity of the science itself. The roots of this issue can be traced back to the philosophical feature/characteristic that distinguished the Renaissance and the French Revolution and led to the accumulation of several philosophical trends/currents, the. As several replacements for the said issue/crisis have been put forth, our focus in this research treatment would be on the of compatiblism/consociationalism, postmodernism, and the Islamic Current attempts in etymology/the etymologization.

Keywords: Sociological theor, The Scientific Crisis, Postmodernism, Compatibility, Islamic rooting

مقدمة:

تعالت الأصوات الأكاديمية طيلة السنوات الماضية بوجود أزمة معرفية في مجال السوسيولوجيا أين اشتد النقاش العلمي بضرورة تحديد أبعاد هذه الأزمة واقتراح الحلول والبدائل الملائمة، فكان علم الاجتماع منذ نشأته يعيش حالة من الاعتراك الابستمولوجي والتحير الانطولوجي بين العديد من الاتجاهات النظرية والمنهجية، فيبدو تارة انه علم فتي، مميز، خاص جدا، لا يشبه العلوم الطبيعية في مناهجها ولا أقيستها الرياضية، بينما يلح العديد من علمائه أنه علم يمكن التجريب والمشاهدة في ظواهره، وإخضاعها للفحص الإحصائي كما يذهب طباق آخر من العلماء إلى أنه علم كلي شمولي، غايته الإصلاح والمحافظة على توازن المجتمع، بينما يرافع فريق آخر على أنه علم ذري، يهتم بالأفراد والتفاعلات الاجتماعية بعيدا عن أي شمولية أو قهر اجتماعي.

فبين الثنائيات القطبية (الكم و الكيف)، (الكل والجزء)، (الموضوع والذاتية)، (التوازن والصراع)، عاش علم الاجتماع وعايش ظروف المجتمعات الغربية وخبراتها ولعلى ما زاد الأزمة وطأة اتهامه في الكثير من الأحيان بأنه علم عنصري، محوري، يحضر رواده دائما في مأدبة السياسة أو المال.

وفي بحثنا هذا سنسلط الضوء على الأزمة التي يعيشها علم الاجتماع لاسيما في المجال النظري وذلك من خلال الرجوع إلى الأصول الفلسفية الأولى لنشأته والمرتبطة في الأساس بعصر التنوير مع تحديدات متباينة للأزمة التي تنخر بطن هذا العلم خاصة في مجال النظرية ومناقشة البدائل الموجودة على الساحة العلمية كالموا لفة النظرية أو النظرية الموحدة والبحث عن بديل نظرية ما بعد الحداثة وعرض محاولة علماء الاجتماع العرب والمسلمين لما يسمى بالاتجاه التأصيلي لعلم الاجتماع.

وستشمل معالجتنا لهذا الموضوع العناصر التالية:

أولا: السوسيولوجيا: النشأة والأصول الفلسفية لعصر التنوير .

ثانيا: بوادر الأزمة والبحث عن البديل.

ثالثا: من النظرية التوافقية إلى سوسيولوجيا ما بعد الحداثة.

رابعا: الاتجاه الإسلامي- محاولة النقد وطرح التأصيل.

أولا: السوسيولوجيا: النشأة والأصول الفلسفية لعصر التنوير:

إن الحديث عن النظرية الاجتماعية يقودنا بالضرورة إلى تصفح إحدى أهم المراحل التاريخية في الحياة البشرية، وهي مرحلة التنوير فقد كان عصر التنوير عصر الإبداع والإنعتاق العقلي والفكري، فقد امتط الفلاسفة آنذاك سروج الحرية المنطقية، أين بدأت أولى قسمات التفكير الجدي بقضايا الانطولوجيا والوجود، الله والخلق، السياسة والفن، الفكر والتجريب، وقد شكلت أعمال الفلاسفة الأوائل والمتأخرين ومواقفهم المعرفية، المرجعية الحقيقية التي تكونت من خلالها الأطر الفكرية الأولى للنظريات السوسيولوجية فلا نستطيع أن ننكر تأثير المفكر والفيلسوف فيكو ومونتسيكيو على المدخل العلمي لأوجست كونت، كما أن جون لوك ودايفيد هيوم وبيركلي في بريطانيا أثروا بشكل واضح على المذاهب التجريبية والشكية العلمية في كل صنوف العلوم

الاجتماعية، بما فيها علم الاجتماع وقد ألف المسار الأدبي والفلسفي الرومانسي في ألمانيا أنشودته الفكرية المتميزة وإلهاماتها الخلاقة على النظرية السوسيولوجية، فقد ابتدع كانط وهيجل وشلينغ وهامان نموذجا فلسفيا مثاليا، يعطي أسبقية للفكر الجدلي والمكنونات الروحية والعقلية عن أي تشييئات مادية خارجية، ويمكن أن نتأمل مثل هذا النزوع الفلسفي في الانطلاق الجدلي لماركس ثم بشكل أوضح عند ماكس فيبر في النظرية السوسيولوجية، كما أن حدث الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر وانتشار مشاهد الميكانيكا والفيزياء، واكتشاف سحر التكنولوجيا مع بدايات القرن التاسع عشر كانت له تأثيراتها الكبيرة على العقل والفكر والعلوم، بحيث أن ولادة الثورة الفرنسية والثورة الصناعية هي ولادة حقيقية لحركة كوسموبولتية (كونية) كان لها الوقع التاريخي والحضاري والعلمي على الحياة البشرية، بل وأثرت على مسار العلوم جميعها بما فيها العلوم الإنسانية والاجتماعية وعموما فمن الممكن أن نرصد إحدى أهم الاتجاهات الفلسفية التي كان لها التأثير الواضح على النظرية السوسيولوجية، والتي شكلت الوعاء المعرفي الذي غرفت منه النظرية الاجتماعية الكثير من أسسها وعناصرها الجوهرية، فقد شيد الوضعيون عالم مسارهم الفكري الذي اهتم بقضايا العلمية والتجريب والذرية، ومحاولة القياس التكميمي على دراسة الإنسان المجرد من كل قيمة أو عقيدة أو عاطفة فكان هذا الاتجاه المعروف ينجرف دوما نحو العلمانية والمبدأ الإلحادي وإقصاء كل الأخلاق الكنسية العتيقة التي تخنق العواطف الإنسانية وتكبل العقول البشرية، بل وتسجن المعرفة العلمية ضمن الخرافات والترهات فكان هذا الاتجاه يصارح بمعاداته للدين ولسلطته على المجتمع.

حيث يشير **ف.فولغين"** إن تاريخ الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر هو قبل أي شيء آخر تاريخ التطور الجامح للايدولوجيا البورجوازية وروادها المنقطع النظي، تاريخ الإعداد الإيديولوجي للثورة الفرنسية عارض التصور الجديد العلماني للعالم الذي تقدم به المجتمع البرجوازي الوليد، عارض سلطة الكنيسة القوية في ظل الإقطاع، بمبدأ حرية تفتح الشخصية الإنسانية كما عارض أخلاق القرون الوسطى التقشفية والزهدية بالتأكيد على حق التنعم بملذات الدنيا و إشباع مختلف الحاجات والأهواء"(ف.فولغين، 2006، ص07).

وعليه يبدو أن الأزمة التي يعاني منها الطابع النظري لعلم الاجتماع هي أزمة فلسفية وفكرية موروثة في الأساس بل ومرتبطة بحركة النكران الوجودي المقصود للدين، الذي صاحب الدعوات والصيحات الفكرية الأولى للثورة الفرنسية على الرغم أن معظم الفلاسفة والمفكرين الأوربيين السابقين كجون جاك روسو، ديكارت، فولتير إلى هيوم وليبنتز أقروا بأهمية الدين ووجود الله وخلقه ويبدو إذن أن الأزمة في الاتجاه الوضعي أصلا هي أزمة دينية ومشروعية علمية وفكرية للدين في دراسة قضايا المجتمع وأحواله.

ويشير **ايزايابرلين "** كان القرن الثامن عشر كما يعرف الجميع -فقد أصبحت بداهة -عهد الانتصار العظيم للعلم هذه الانتصارات العظيمة للعلم كانت أكبر أحداث ذلك الزمن، وكانت أعمق ثورة في العاطفة الإنسانية هي التي حدثت في ذلك الحين نتيجة لتدمير الأشكال القديمة نتيجة للهجوم على الدين المؤسسي وعلى التراتبية القروسطية القديمة على حد سواء من قبل الدولة العلمانية الجديدة "(إيزايابرلين، 2012، ص101).

ثانيا: بوادر الأزمة والبحث عن البديل:

يبدو أن الأزمة في السوسيولوجيا هي أزمة هوية علمية حقيقية، تمتد جذورها إلى الفكر الفلسفي الأوروبي، أين نجد مجالها النظري والمنهجي يعكس انقساما واضحا بين أنساقا فكرية متباينةحول فهم الكيان الإنساني وماهية وجوده الفردي والاجتماعي ويعطي تمثيلات مختلفة للتصور الواقعي لحياة الإنسان، كما أن ظلال الأزمة تمتد إلى تلك الاتجاهات النظرية اللاحقة والتي اتسمت بالتناقض والتضارب وحتى التصادم الابستمولوجي، أضف بأنها في أغلب اللحظات التاريخية بزوغا كانت منشغلة في التحليلات والخبرات الخاصة بالمجتمعات الغربية والأوروبية خاصة حتى أصبح علم الاجتماع ونظريته متهمة بأنها تعكس واقع المجتمعات الأوروبية أو الأمريكية فحسب. حيث ينوه في هذا الإطار **السيد الحسني** "اختلف علماء الاجتماع المحدثون حول تشخيص المرحلة التي يمر بها علم الاجتماع المعاصر، فالبعض يذهب إلى أن الانجازات السوسيولوجية التي تحققت خلال تاريخ هذا العلم، يجب أن تخضع لمراجعة شاملة لأنها قد وصلت بالفعل إلى طريق مسدود والبعض الآخر يؤكد أن علم الاجتماع الحديث -وعلى الأخص الغربي- يتعرض "لأزمة" حقيقية بسبب تجاهله للخبرات الإنسانية التي تشهدها مختلف مجتمعات العالم وأيّا كانت التسميات التي يمكن أن تطلق على المرحلة الحالية من تطور علم الاجتماع فإن هناك عقبات معينة تحول دون تقدم هذا العلم ومن ذلك ضيق نطاق النماذج النظرية السوسيولوجية وعدم قدرتها على استيعاب مختلف أنماط المجتمعات والثقافات"(السيد الحسيني، 1985، ص20-21).

والأكثر من ذلك فإن البناء النظري لعلم الاجتماع ظل مرتهنا لفترات زمنية طويلة بالتمنيات السياسية للبحوث الاجتماعية، وبالأحداث التاريخية الاستعمارية للدول التي ظهر فيها، فرنسا وايطاليا وألمانيا وصولا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حتى تعالت الأصوات بأن السوسيولوجيا هي صناعة أوروبية مقيتة ومتحيزة وتخدم الأهداف الاستعمارية بل وتحمل النوايا الخبيثة للشعوب المتخلفة، وتريد تطبيعها بمعالم المجتمعات الأوروبية ويشير **يان سبورك"** إن ذلك يطرح علينا تحديات وأسئلة بشكل أقوى لأنه تحت أنظارنا يطفو أو ينبثق مجتمع جديد لا نعرف ولا نستطيع أن نعرف عنه سوى بعض العناصر، التي تظهر نطاقاته المتناقضة بعمق أنه مجتمع موسوم بالطابع الأوروبي، ومعولم يبحث عن قواعد وضوابط جديدة وعن أطر حديثة خاصة بالدولة، وفي إطار العلاقة المباشرة مع انبثاق هذا المجتمع الجديد يتساءل علماء الاجتماع اليوم حول أنفسهم ووجودهم وحول معنى هذا الوجود، وهم يتساءلون أيضا حول علمهم النظامي وحول مكانتهم في المجتمع كما حول علاقتهم باللاعبين الفاعلين الفرديين والجمعيين وأيضا حول خصوصياتهم ودورهم ومشاركتهم في بناء المجتمع"(إيان سبورك، 2009، ص10).

وفي ظل التنامي المتزايد للنزعة الاستقطابية في السوسيولوجيا، ترعرعت الأزمة العلمية والمعرفية للعلم الجديد حتى أصبحت الاتجاهات التقليدية منقسمة ومتجزأة وفق مقولات تفسيرية قطبية وثنائية بين (الكل والجزء)، (الفرد والمجتمع)، (التجربة والحدس)، (المادة والروح)، (المتعين والباطن)، (الموضوعية والذاتية) ،(الفهم والقياس)،(الكم والكيف)، (التوازن والصراع)، وقد اشتهر علم الاجتماع عموما بانقسامه إلى اتجاهين أساسين أحدهما محافظ

والأخر ثوري يساري فالاتجاه المحافظ يضم الوضعيون والوظيفيون والبنائيون والعضويون وحتى التطوريون وجميع تلك المداخل الناتجة عن التقاطعات النظرية والفكرية بين الاتجاهات السابقة حتى أصبح علم الاجتماع الوضعي والوظيفي هوالأكثر قبولا أكاديميا في أغلب الدول والجامعات الأوروبية والأمريكية بعد ذلك، حيث عرف هذا الاتجاه بتبنيه لأفكار التكامل والإجماع و ضرورة الاستقرار والتوازن للأنساق الاجتماعية وبفكرة الوظيفية للبنى الاجتماعية.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية، ظلت الاتجاهات المسيطرة على علم الاجتماع الأكاديمي منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الستينيات تتقاسمها البنائية الوظيفية لبارسونز وميرتون أي الاتجاه الكلي، والنظرية الوضعية المستحدثة للاندبرج ودود للاتجاه الكمي، والتفاعلية الرمزية لهربرت ميد وبلومر، وهو الاتجاه الفردي أو الجزئي في التفسير، وإلى جانب هذه المدارس الفكرية الثلاث كانت هناك أقلية معترضة على موقف المؤسسات الأكاديمية في علم الاجتماع الأمريكي مثل الماركسيين المحدثين ميلز وماركيوز والفينومينولوجيا الاجتماعية لشوتز والاتنوميتدولوجيا لجارفينكل، والتي تعتبر امتدادا علميا للاتجاه التفاعلي الرمزي(زينب شاهين، 1987، ص64).

والبعض يتفنن في تسميتها بعلم الاجتماع التأويلي أو النظريات الإبداعية نظرا لاهتمامها البالغ في تأويل الظواهر الاجتماعية، انطلاقا من التأويلات الخاصة بالفاعلين الاجتماعيين وتصوراتهم بل حتى عواطفهم ومشاعرهم ومكنوناتهم الذاتية.

أما الاتجاه الثوري فقد عرف بالمفاهيم الماركسية، والتفسير الاشتراكي التقليدي للجدلية المالية وثورة البورليتاريا، إضافة إلى تلك التحليلات التي ظهرت عند المتأخرين الناقدين للاتجاه الماركسي بداية من بيرنشتاين والمدرسة النمساوية، إلى الماركسية المحدثة لرالف دارندورف ولويس كوزر، ثم ذلك الاتجاه اللامع الذي ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية والذي عرف باليسار المعتدل وضم أعلام مدرسة فرانكفورت ورايت ميلز وإلفن جولدنر، إضافة إلى تلك الاتجاهات النقدية الأخرى وعموما فالاتجاه الثوري أو الصراع عرف بميله لأفكار الصراع والتناقض في التحليل السوسيولوجي.

وعموما فأزمة الانقسام النظري والتضارب في تفسير الواقع هي حقيقة يعترف بها كل العاملين تقريبا في مجال علم الاجتماع، غير أن الاستشكال النظري والمنهجي يطرح بقوة مرة أخرى وذلك عند الحديث عن البديل بل وتوفر وحدة مفهمية وتوافق نظري، وإمكانية الخروج من عش النماذج التقليدية التي ورثت أراء وأفكار حقبة التنوير والثورة الفرنسية، وقد أورثتها بدورها لكل تلك الاتجاهات السوسيولوجية.

ثالثا: من النظرية التوافقية إلى سوسيولوجيا ما بعد الحداثة:

فهناك من يرى أن البديل هو البحث عن نظرية توافقية موحدة بين جميع التيارات العلمية الموجودة في السوسيولوجيا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، بحيث تضم جميع المفاهيم والأدوات التحليلية لكل التوجهات الوظيفية والماركسية، الفردية والكلية، أي تآلف نظري ويشير **مصطفى خلف عبد الجواد** "كما لاقى مشروع الموالفة النظرية ترحيبا من بعض الشخصيات البارزة في النظرية المعاصرة، ومنهم من يتعاطف مع التركيز على البحوث في المشروع الأول إذ نجد جوناثان تيرنر يلح في اتخاذ الخطوات لكسر الحواجز التي تفصل بين المنظرين والمضي

قدما في اتجاه الموالفة النظرية على المستويات الكبرى والوسطى والصغرى، خاصة المستوى الأخير الذي طرح نظرية توليفية عن التفاعل الاجتماعي، وعلى الرغم من اعتراف تيرنر بأن الوصول إلى نظرية توحد بين جميع هذه المستويات أمر بعيد المنال، فانه يعتقد بأن النظريات الموجودة عند كل مستوى تحتوي على العديد الديناميكيات الفعالة للكون الاجتماعي مما يجعل علم الاجتماع يقترب من النظرية العامة القابلة للاختبار الأمبريقي من النوع الموجود في العلوم الطبيعية أي المبادئ الصحيحة التي تنطبق على مجالات عديدة"(مصطفى خلف عبد الجواد، 2001، ص233).

وقد ظهرت العديد من المحاولات التوليفية، كمحاولة أنطوني غيدنز في التشكيل الاجتماعي والطرح النظري لنوربرت الياس في البنيوية التكوينية، غير أن أبرز هذه الإرهاصات كانت لجفري ألكسندر لطرحه لبديل جديد في الوظيفية، يهتم بقضايا التمايز والصراع على قدر اهتمامه بمساءلات الاستقرار والتوازن واعتبار الاختلال واللاتوازن أمر واقع، وقد يكون محببا ومفضلا في حالات عديدة، كما نجده يهتم بمؤالفة تفسيرية بين الوحدات الصغرى والكبرى، ويشير **ايان كريب** "ولعلى تعديل الوظيفة البنائية هذا وفتح أبوابها يمكن أن يفهم بشكل أفضل في اطار فكرة الكسندر، كما يجب على النظرية الاجتماعية أن تفعله -وهو ما يطلق عليه خاصية التعدد في أبعادها- ففي المجلد الأول من مؤلفه الضخم "المنطق النظري في علم الاجتماع" يذهب إلى أننا لابد أن نأخذ بعين الاعتبار ثلاث مجموعات من المتقابلات الأولى التقابل بين النظرية والواقعة البعدين الميتافيزيقي والعيني لعلم الاجتماع، الثانية بين الإرادة الفردية والهيمنة الجماعية، والثالثة بين الفعل المعياري و الفعل الأداتي"(إيان كريب، 1999، ص93).

وتضيء الساحة العلمية للسوسيولوجيا بأفكار بديلة ومغايرة للطرح السابق حيث يصر طباق من علماء الاجتماع أن جهد الموالفة أمر غير مجدي وتشوبه المواربة النظرية والمنهجية، خاصة إذا تعلق بحقبة كلاسيكية طويلة من تراكم العديد من النظريات والنماذج التفسيرية التي تعكس بصورة أو بأخرى خبرات زماكانية قديمة لمجتمعات ومجموعات حضارية بعينها دون أخرى، لذلك ففترة الحداثة من النظرية السوسيولوجية حسب الكثير من علماء الاجتماع لابد أن نتجاوزها، للحديث عن الحداثة المتأخرة أو فترة ما بعد الحداثة ،فمع اشتداد النقاشات العلمية خلال الستينيات من القرن الماضي حول قضايا (الهوية، السلاسة، البيئة، القيم المادية، النزعة الاستهلاكية، الجريمة والتردي الأخلاقي، العنصرية، العولمة)، ظهرت حركات فنية وفلسفية وحتى أدبية وعلمية تنادي بمشروع ما بعد الحداثة، ما بعد المعلوماتية، ما بعد التكنولوجيا، والبعض يسميها بالرأسمالية المتأخرة أو الحداثة العليا.

فنجد **رايت ميلز** يتكلم عن عصر ما بعد الحداثة كإحدى الحقب التاريخية الطبيعية في تطور المجتمعات "نحن نقترب الآن من نهاية العصر الذي يطلق عليه العصر الحديث، ومثلما تلا العصور القديمة عدة قرون من الهيمنة الشرقية التي يطلق عليها الغربيون من ذوي الأفق المحدود في التفكير عصور الظلام فإن العصر الحديث الآن تعقبه فترة ما بعد الحداثة"(مصطفى خلف عبد الجواد، 2011، ص94).

كما أن غيدنز في الاتجاه اليميني المعتدل الوظيفي يرفض تسمية المرحلة الناقدة الحالية للفنون والعلوم بما فيها السوسيولوجيا بمرحلة ما بعد الحداثة، وأنما يسميها بالحداثة المتأخرة أين يتم تصحيح أخطاء البشرية في المرحلة السابقة وذلك عن طريق تجاوز التحديث الانعكاسي والآثار التدميرية له، كارتفاع درجة حرارة الأرض، الأسلحة النووية، الاستنزاف البيئي.

وفي علم الاجتماع كان ظهور مصطلح سوسيولوجيا الحداثة مرتبطة بأعمال دوركايم وفيبر وحتى ماركس بأقل درجة، غير أن أهم مراجعات وتحفظات علماء الاجتماع على سوسيولوجيا الحداثة، هو ضرورة الاهتمام باللآصرة الإنسانية والتحليل الفهمي للوجود الاجتماعي، من خلال المكونات الشخصية والعاطفية وحتى الذاتية وقبولها كحقيقة جوهرية في الحياة الإنسانية، لذلك فالمساءلات الوجدانية التي طرحت في علم الاجتماع كان لها الوقع العلمي الملائم حتى يخترق البحث السوسيولوجي، ليدغدغ المشاعر العلمية لعلماء الاجتماع و يزيدهم وعيا بمدارسة مجالات غير مألوفة، مثل (علم اجتماع الحب والفن والهوية والثقافة والتعددية، النظرية النسوية، والنوع الاجتماعي اللامساواة الكونية، الحركات البيئية والحقوقية، الأمن والسلام الكوكبي)، كما أن أغلب علماء الاجتماع في ما بعد الحداثة من أقصى القطب الوظيفي إلى أقصاه الماركسي يصرون على ضرورة أن تتجاوز التحليلات السوسيولوجية التعصب المفهمي لأحدى الثنائيات (الفرد،المجتمع)، (الجزء، الكل)، (الذاتية، الموضوعية)، وضرورة الوعي أن علم الاجتماع لابد أن يتمتع بنظرة تقرب الشخصي إلى العام وتهتم بالذاتية على قدر اهتمامها بموضوعية الظواهر الاجتماعية و ينوه **مصطفى خلف عبد لجواد** في تعليقه على علم اجتماع ما بعد الحداثة.

"وبلغة بسيطة يمكن القول أن كثيرا من علماء الاجتماع بدؤوا يقتنعون أن علم الاجتماع الكلاسيكي-بما فيه علم الاجتماع التأويلي- لم يعط التجربة الإنسانية حق قدرها، وتبذل جهود حاليا، لفهم ذاتية الرؤى (الشخصية /المشاعر) لكل من الناس الذين يدرسهم علماء الاجتماع من جهة، وعلماء الاجتماع أنفسهم من جهة ثانية و لم يكن الاهتمام بالرؤى والمشاعر الشخصية بجديد على علم الاجتماع بل و ازدهر حاليا إلى حد ترك أثره في هذا العلم، وسيظل يؤثر فيه والسؤال الآن ما الذي دفع إلى إعادة الإهتمام بالذاتية في علم الاجتماع؟ يعود الاهتمام الحالي بجذوره إلى حركات الاحتجاج في الستينيات، التي زعمت أن الاتجاه السائد في الحياة السياسية والعامة أصبح بعيدا عن خبرات الأغلبية و قيمها"(مصطفى خلف عبد الجواد، 2001، ص93)، ونلخص من خلال الجدول التالي أهم الاتجاهات النظرية السوسيولوجية السابقة واهتماماتها التحليلية.

جدول يوضح أهم الاتجاهات النظرية السوسيولوجية وقضاياها التحليلية

الاتجاهات النظرية	القضايا التحليلية
الاتجاه الوظيفي البناية الوظيفي (دوركايم، فيبر، بارسونز)	-التركيز على مفهوم الإجماع والتوازن في الأنساق الاجتماعية وكل نسق يؤدي وظيفته في إطار تكامل القيم والثقافة والأدوار وهو اتجاه يهتم بالتحليل الكلي للمجتمع. -التركيز على مفهوم الصراع والتغير الجذري في البناء، الذي يرتكز على المادية الجدلية ومنطق الديلاكتيك والأساس الاقتصادي هو الأهم، اتجاه يهتم بالتحليل الكلي المجتمع من خلال إبراز المتناقضات والصراع.
الاتجاه الماركسي(ماركس، أنجلز)	-تنطلق من مفهوم التفاعل الاجتماعي والحياة اليومية للناس، أسلوبها كيفي في التحليل تهتم بالتصورات والتأويلات الذاتية تهتم بالتحليل الجزئي "الفرد"
النظريات الإبداعية والتأويلية (التفاعلية الرمزية الفينومينولوجيا، الإثنوميتودولوجي) (هوبرت ميد، شوتز، جارفينكل)	الاهتمام بالرؤى النقدية للاتجاه الكلي والجزئي، وضرورة التوافق بين الفرد والمجتمع وتنمية وعي وخيال سوسيولوجي نوعي لدى علماء الاجتماع، ورفض أولوية المادة على الوعي والتغلغل في الكشف عن الخفايا الكامنة للظواهر والوقائع، مهمتها نقد النظم والأوضاع الاجتماعية .
النظريات النقدية (الخيال السوسيولوجي التأمل السوسيولوجي، مدرسة فرانكفورت) (ميلز، غولدنر، هوركهايمر) .	الاهتمام بقضية القياس الإحصائي ودراسة الظواهر من خلال معادلات رياضية مضبوطة تهتم بالتحليل على المستوى الذري الفردي، تتفرع إلى العديد من الاتجاهات كعلم الاجتماع التطبيقي، علم الاجتماع الرياضي.
الوضعية المحدثة (لاندبرغ، دود)	التركيز على أهمية وجود نظرية توافقية متعددة الأبعاد، والاهتمام بالتحليل على مستوى الوحدات الصغرى والكبرى معا، ولفت الانتباه أن المجتمع يعيش التمايز والصراع كما يعيش الإجماع والتكامل على السواء.
النظرية التوافقية: اتجاه متعدد الأبعاد(ألكسندر الياس،غيدنز، بورديو....)	إثارة القلق لمجتمع الانعكاسية وآثار التدمير للتكنولوجيا و خطرها على البيئة والاهتمام بقضايا (الهوية، النوع الإنساني، النظرية النسوية المساواة العالمية، التغير المناخي)، الاهتمام بالعواطف والمكونات الشخصية أكثر في التحليلات السوسيولوجية والتمازج العميق بين الثنائيات الفردية والمجتمعية، الذاتية والموضوعية.
سوسيولوجيا ما بعد الحداثة	

رابعا: الاتجاه الإسلامي: محاولة النقد و طرح التأصيل:

إن الاستشعار العلمي بأزمة النظرية السوسيولوجية سرعان ما ألقى بظلاله على الكثير من الأوساط الأكاديمية في الدول الإسلامية والعربية، وحتى بعض من تلك الحركات العلمية التي ظهرت في دول أمريكا اللاتينية، ففي المجتمعات العربية والإسلامية، تكونت هناك قناعة عند العديد من علماء الاجتماع والأساتذة أن علم الاجتماع الغربي الأكاديمي بصورته الحالية أصبح عاجزا ومغتربا عن فهم المشكلات النوعية التي تمر بها مجتمعاتنا، بل أنه مصدر الخطر الحقيقي إذا تم التسليم بكل تلك التيارات النظرية العلمانية والإلحادية في الأساس دون أي مراجعة علمية لهذه التيارات.

فقد ظهرت العديد من الكتابات والمراجعات النقدية في مجال السوسيولوجيا العربية والإسلامية بحيث نجد من يذهب لضرورة توطين علم الاجتماع، والبعض الآخر ينصح بالأقلمة والتكييف للنظريات الغربية، حتى تصبح مطوعة لدراسة الواقع العربي والإسلامي، بينما فريق آخر يصر على خلدونية السوسيولوجيا، أي أن علم الاجتماع هو علم مكتشف في الأساس من طرف العالم الإسلامي العربي عبد الرحمن بن خلدون وسماه "علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري" وهو يتحدث من خلاله انطلاقا من مصادر الوعي والفطرة والتجربة، وهذا في الواقع ما يشجع رأي فريق رابع بضرورة الذهاب إلى ما يسمى بتأصيل علم الاجتماع ليكونا الوحي (القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة)، إحدى أهم مصادر المعرفة والتنظير في علم الاجتماع الذي يصبح علما موحدا لا ملحدا، ويشير **مراد زعيمي"** إن إعادة بناء علم الاجتماع يتطلب إعادة النظر في الإطار المرجعي والمدخل المنهجي، الذي يقوم عليهما هذا العلم واستئناف المسار الذي أسس له ابن خلدون الذي أخذ من الإسلام إطاره المرجعي والقياس الأصولي منهجه وإذا كنا ندرك من البداية أن الإسلام ليس نظرية اجتماعية، ولا ينطوي على نظريات علمية لا لعلم الاجتماع ولا لغيره من العلوم الإنسانية أو الطبيعية، لكننا نؤمن في ذات الوقت أن الإسلام هو المصدر الأساسي للإطار المرجعي لعلم الاجتماع الذي ينطلق منه الباحث ويحتكم إليه في الدراسة والبحث، وفي تشييد النظرية العلم اجتماعية"(مراد زعيمي، 2004، ص63).

وسنقوم فيما يلي بعرض لأهم الانتقادات والأفكار الأساسية لأصحاب الاتجاه الأخير الذي ينادي بتأصيل علم الاجتماع إسلاميا.

فقد قدم أصحاب اتجاه التأصيل العديد من الانتقادات للبنية النظرية والمنهجية في علم الاجتماع الأكاديمي الغربي ومن أهمها:

-أصبحت السوسيولوجيا أداة غير بريئة في أيدي رجال الأعمال والحكومات والساسة، الذين كثيرا ما يشيدون الجامعات ومراكز البحوث، لتمرير القرارات والوصول إلى المصالح الخاصة فلم يعد علم الاجتماع حتى بعد الحداثة سوى مصدرا للاسترزاق غير الموضوعي للكثير من محترفيه، ويشير **رايت ميلز** "إن -علم الاجتماع الجديد- كما يمارس في مجال رجال الأعمال خاصة، في مجالات الاتصال الخاصة بالإعلان، وفي القوات المسلحة وفي الجامعات كذلك قد أصبح يخدم عملاءه البيروقراطيون أيا كانت غاياتهم وأولئك الذين يقومون بترويج وممارسة هذا

الأسلوب من البحث، يتبنون فورا المنظور السياسي لعملائهم ورؤسائهم البيروقراطيين، وتبني المنظور غالبا ما يصبح قبول له"(رايت ميلز، 1997، ص181).

ويشير **أحمد مجدي حجازي"** إن اعتماد علم الاجتماع على مصادر تمويلية عامة وخاصة لتمويل البحوث الاجتماعية أظهر الشكوك في مصداقية أهدافه التي يسعى إليها، لقد لاحظ ستيفن ترنر مثلا عدم الاتساق بين النتائج التي توصلت إليها الدراسات الاجتماعية التي أجريت خلال القرن العشرين"(أحمد مجدي حجازي، 1998، ص217).

-إن السوسيولوجيا الغربية بدت متأثرة بنهضة التيارات العلمانية والإلحادية، الناتجة عن الثورة الفرنسية فهي تعكس أفكارا إلحادية غير سليمة، وعاجزة عن فهم الماهيات الوجودية للكون والإنسان، فهي تقصي الدين وتنكر وجود الله تعالى على الرغم من أن العديد من الفلاسفة أقروا بل أكدوا أن الله هو الخالق لهذا الوجود الكوني، ومن أمثال هؤلاء دايفيد هيوم وليبتنز ويشير **رونالد سترومبرج** "لقد كان لايبنتز يعتقد بأنه يتوجب أن يكون ثمة سبب كاف أو علة كافية لكل شيئ، بما في ذلك إرادة الله وأن الله قد اختار هذا العالم من بين العديد من العوالم الممكنة، ولم يختره اختيارا متعسفا، بل أن ثمة سببا وراء اختياره، وأن للعالم قوانينه الضرورية وعلاقاته المتبادلة"(رونالد سترومبرج، 1994، ص166).

-أن الروح لا وجود لها في التكوين الجبليّ للكينون الإنساني، وهي لا تلقى الاهتمام اللازم في التحليلات السوسيولوجية، حيث تعتمد عملية التأويل والتفسير على الخارجيات السلوكية للإنسان وإغفال ذلك الجانب الروحي الخفي والمضمر، والذي يشكل بل ويؤثر على صور الظواهر الإنسانية وحركتها، ثم أن الروح هي حقيقة خلقية فطرية، ويشير **محمد قطب** "فمن حقيقة خلق آدم من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، لا يمكن فصل عنصر في حياة الإنسان عن عنصر، لأنهما ممتزجان مترابطان، ومن ثم فكل نظام أو فكرة أو تصور الإنسان مادة فحسب أو روح فحسب فهو مخطئ من حيث أهمل الجانب الآخر في كيان الإنسان، ويسري الخطأ في كل خطوطه وتخطيطاته"(محمد قطب، 1983، ص126).

-إن الحقائق مؤطرة ضمن منهجية العلوم الاجتماعية من خلال العقل والتجربة والمشاهدة فقط بينما يصر أصحاب الاتجاه التأصيلي الإسلامي أن الوحي الإلهي المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما مصدران أساسيان لتفسير الظواهر والحادثات الاجتماعية، ولا يمكن إسقاطها أو نكرانها لأي سبب كان والأصل هو الجمع بين المعقول والمنقول، بين المحسوس والوحي، بين الرواية والدراية، ويقول **مراد زعيمي** "ويتمثل هذا الإطار المرجعي في القرآن الكريم، السنة النبوية، الفكر الإسلامي، والفكر الإنساني، لقد تم الاعتماد على الإسلام نفسه في تحديد هذه العناصر المكونة للإطار المرجعي لعلم الاجتماع الإسلامي"(فوضيل دليو وآخرون، 1996، ص84).

-يعاب على السوسيولوجيا الأكاديمية الغربية بأنها محورية، شكية، مضطربة، تعكس تجربة الإنسان الأبيض الشمالي فحسب، وهي تبدو غريبة عاجزة في إعطاء تفسيرات مقنعة لمجتمعات عربية إسلامية توصف بأنها المجتمعات الأكثر روحية في كوكبنا.

-ضرورة الجمع بين الذاتية والموضوعية بين الإرادة الفردية وقوة الجمعية والمجتمع، فالخلق الإلهي هيّأ الكينونة الإنسانية للحياة الشخصية المتميزة، التي لا تملك إلا الارتماء في الأحضان الاجتماعية للمجتمع، ثم لا يملك الفرد أي حياة منعزلة عن الهيولة الاجتماعية التي يتفاعل معها ويعيش لأجلها في الكثير من الأحيان ويشير **عبد العزيز القوصي**: "وما نعلمه من وجود نظريتين إحداهما الفردية التي تبالغ في تقدير الفرد وتذويب كيان المجتمع والأخرى الجمعية لا يعني في الواقع شيئا فالفرد والمجتمع ليس في الحقيقة قوتين منفصلتين"(محمد التومي، 1990، ص247).

خاتمة:

يتضح أن علم الاجتماع يعيش فعلا أزمة ابستمولوجية ارتبطت أساسا بظروف نشأته، وانشطار نظريته ضمن العديد من الاتجاهات الفلسفية لعصر التنوير والثورة الفرنسية، فالوضعية العلمانية التي أثرت بقوة في التوجهات العلمية والنظرية للعلم، كانت متفوقة بل ولاقت القبول عند الكثير من العلماء والباحثين في علم الاجتماع، كما أن النزعة الرومانسية كان لها الأثر البالغ في الالتزام الأخلاقي والفكري لرواده، غير أن الأزمة بدت بشكل واضح في انقسام النظرية السوسيولوجية إلى عدة تفريعات ومداخل متضاربة مختلفة وغير متفقة، وذلك ضمن اتجاهين أساسين أحدهما محافظ (وضعي، وظيفي) يميني، والآخر ثوري ماركسي صراعي يساري وضمن هذين المدخلين بدت المعركة مشتدة في ايجاد القوالب والأنماط التفسيرية للظواهر الاجتماعية فنجد من يؤمن بالمجتمع وكليته وأسبقيته، ونجد من يمجد الفرد ويدافع عن تميزه، وهناك من يقدس الكم والعدد والإحصاء، بينما فريق مهوس بالشروحات الكيفية والتصورات الذاتية.

وعموما فالأزمة قد تعدت هذا الطرح ألاستقطابي، لتطرح مساءلات مشروعة حول الدور الذي يلعبه علماء الاجتماع في الجامعات ومراكز البحوث والشركات المالية والمؤسسات السياسية، في ظل التمويل المتزايد للبحوث السوسيولوجية التي تثار حولها العديد من الشكوك، كما أن السوسيولوجيا تظل متهمة بالمحورية والإقصاء بل والعنصرية في كثيرا من الأحيان، عندما يتخلى علماء الاجتماع في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية عن موضوعية التنوع الثقافي وخصوصيات المجموعات الحضارية في مدارساتهم العلمية، وإهمال تجربة المجتمعات الأخرى.

وأمام هذا الوضع طرحت العديد من المقاربات النظرية التجاوزية، كمقاربة النظرية التوافقية التي تسعى للتخلص نهائيا من الانحياز إلى إحدى قطبي ثنائية المجتمع أو الفرد، والإيمان أن الحقيقة الوجودية هي حقيقة متعددة الأبعاد (فرد، مجتمع)، كما ظهرت مقاربات ما بعد الحداثة التي تتحول من خلالها السوسيولوجيا إلى الاهتمام بمواضيع واستشكالات الناس اليومية(كالهوية النسوية، العاطفة والحب، السلالة والشباب، البيئة) لتكون في النهاية سوسيولوجيا قريبة إلى القلب.

ويطرح في العالم العربي والإسلامي مقاربات توطينية وتوليفية عديدة، إضافة إلى محاولات التأصيل التي تعتبر أن الأزمة أصلا مرتبطة في العجز المعرفي الناتج عن نكران الروح كمكون

فطري في خلق الإنسان، وإقصائه من أي محاولة لتغيير الواقع، أضف إلى ذلك فإن استكناه المعرفة لا يحصل فقط بالتجربة والعقل فالوحي (القرآن الكريم السنة النبوية)، يعتبر مصدرا أوليا للتنظير والبحث فلابد أن نجد هناك متقابلات في علم الاجتماع بين الوحي والتجربة والمنقول والمعقول.

قائمة المراجع:

1.أحمد مجدي حجازي(1998)، علم اجتماع الأزمة، دار قباء للطباعة والنشروالتوزيع، القاهرة مصر.

2.إيان كريب وآخرون(1999)، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسن غلوم ،عالم المعرفة، الكويت.

3.إيزايا برلين(2012)، جذور الرومانتيكية، ترجمة سعود السويدا، جداول للنشر والتوزيع بيروت، لبنان.

4.السيد الحسيني(1985)، نحو نظرية اجتماعية نقدية، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر.

5.إيان سبورك(2009)،أي مستقبل لعلم الاجتماع، ترجمة حسن منصور الحاج، ط1، كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

6.رونالد سترومبرج(1994)، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، ترجمة أحمد الشيباني، ط3، دار القارئ العربي.

7.رايت ميلز(1997)، الخيال العلمي الاجتماعي، ترجمة عبد الباسط عبد المعطي وعادل مختار الهواري، دار المعرفة الجامعية، مصر.

8.زينب شاهين(1987)، الإثنوميتودولوجيا-رؤية جديدة لدراسة المجتمع-، ط1، مركز التنمية البشرية والمعلومات، القاهرة، مصر

9.محمد التومي(1990)، المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب والدار التونسية للنشر، الجزائر/تونس.

10.ف.فولغين(2006)، فلسفة الأنوار، ترجمة هنرييت عبودي، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

11.فوضيل دليو وآخرون(1996)، علم الاجتماع من التغريب إلى التأصيل، دار المعرفة الجزائر.

12.محمد قطب(1993)، دراسات قرآنية، ط4، دار الشرق، القاهرة، مصر.

13.مصطفى خلف عبد الجواد(2011)، نظرية علم الاجتماع المعاصر، ط2، دار الميسرة للنشر والتوزيع،عمان، الأردن.

14.مراد زعيمي(2004)، علم الاجتماع –رؤية نقدية- ، مؤسسة الزهراء للفنون المطبعية قسنطينة، الجزائر.